# سيِّد الشُّهداء وحارس فلسطين: أيّ كلمات تفي بدمك يا نصرالله؟

محمد الأيوبي
كاتب صحفي فلسطيني

عامٌ مرّ على استشهاد السيد حسن نصرالله، ومازال الوجدان العربي والإسلامي مأزومًا أمام سؤال واحد: كيف يمكن رثاء رجلٍ جمع بين البطل المجسَّد الذي يواجه تحديات الواقع المادّي، والبطل الروحي الذي يبدِّد مخاوف الداخل؟ حين أُعلن خبر استشهاده، رفض كثيرون التصديق. لم يكن الإنكار مجرّد آلية دفاع نفسي، بل نتاج وعيٍ عميق بأنّ ظواهر مثل نصرالله لا تُموت، وأن غيابها خرقٌ لناموس الكون.

حتّى اليوم، لا يزال كثيرون يبحثون عنه في خطاب لم يُلق بعد، أو صورة عابرة لرجل يشبهه، أو حتّى في مجسّم ثلاثي الأبعاد. ليس ذلك وهمًا فقط، بل محاولة متكررة لاستعادة أسطورة حيّة بعثت فينا شعورًا بالقدرة على التحدي.

## البطل الذي حوّل «عصر الهزائم» إلى «عصر الانتصارات»

لفهم ظاهرة نصرالله، لابدّ من العودة إلى المشهد العربي عشية توليه الأمانة العامة لحزب الله عام ١٩٩٢. كانت المنطقة غارقة في آثار هزيمة ١٩٦٧، وتداعيات الاجتياح «الإسرائيلي» للبنان ١٩٨٢، ومؤتمر مدريد، وصعود منطق التسويات. كان «عصر الهزائم» يفرض نفسه، ولم يكن أحد يتوقع أن الجنوب اللبناني الصغير سيهزّ أركان المشروع الصهيوني.

لكن نصرالله فعلها. عام ٢٠٠٠، تحقق أول انسحاب «إسرائيلي» من أرض عربية بالقوة العسكرية، لا عبر مفاوضات. كان ذلك إعلانًا بأن المقاومة ليست مجرد شعار، بل خيار إستراتيجي قادر على قلب المعادلة. هنا تحديدًا بدأ التحول: من عصر الهزائم إلى عصر الانتصارات. هذا الانتصار لم يكن لبنانيًا فحسب، بل فلسطينيًا بامتياز. لقد رأى الفلسطينيون فيه البرهان الملموس على أن «إسرائيل» يمكن أن تُهزم، وأن السلاح يمكن أن يحرر.

إن مقاربة نصرالله من زاوية إيمانويل تود تعني النظر إليه لا كظاهرة فردية، بل كنتاج لسيرورات اجتماعية وتاريخية طويلة: الانهيار العربي بعد ١٩٦٧، صعود الإسلام السياسي، تشكّل محور المقاومة، وانحسار هيمنة الغرب في الشرق الأوسط. في هذه اللحظة، يصبح نصرالله مرآةً لأزمة الغرب ذاته، ولإعادة تعريف الشرق الأوسط كساحة صراع كونية.

## فلسطين كجوهر الشرعية

في خطاب نصرالله، لم تكن فلسطين قضية تضامن عاطفي أو شعارًا يزيّن الخطب السياسية. كانت جوهر الشرعية، معيار صدقية أي حركة مقاومة. قال مرارًا إن فلسطين هي «القضية المركزية للأمّة»؛ لكن الأهم أنه ترجم هذا القول إلى فعل: دعم سياسي وعسكري ومعنوي للفصائل الفلسطينية، وإصرار على أن كل معركة يخوضها حزب الله مرتبطة عضويًا بمصير غزّة والضفّة.

من هنا نفهم لماذا وصفه الفلسطينيون بـ«شهيد غزّة». فالرجل لم يُنظّر للقضية عن بُعد، بل جعلها جزءًا من مشروعه الإستراتيجي.

حين أعلن في خطاب شهير خلال حرب تموز ٢٠٠٦ أن «ما بعد حيفا وما بعد ما بعد حيفا» تحت مرمى الصواريخ، وخلال حرب غزّة الأخيرة قال «بيروت يقابلها تل أبيب»، كان يخاطب غزّة أيضًا: «لستم وحدكم».

## الاستشراق المعكوس: إعادة تعريف البطولة

إدوارد سعيد كشف كيف صاغ الغرب صورة «الشرق» كآخر متخلّف يحتاج إلى هيمنة؛ لكن تجربة نصرالله تقدم وجهًا آخر: «استشراقًا معكوسًا» حيث يعيد المقموع تعريف ذاته من خلال المقاومة. لم يكن نصرالله صورة نمطية لقائد عسكري، بل جسّد شخصية هجينة، تقاطع فيها الطابع المحلي اللبناني مع الطابع الأممي الفلسطيني والعربي والإسلامي.

لقد صار «البطل المركّب» الذي يجمع الأضداد: القوة والرحمة، الغضب والهدوء، الطموح والزهد. هذه التركيبة أربكت لغة الرثاء؛ فكيف يمكن للكلمات أن تحيط برجلٍ كان في آن واحد رمزًا للصلابة العسكرية ورمزًا للرهافة الروحية؟

## لبنان وغزّة: وحدة الدم والمصير

إذا كان تحرير الجنوب عام ٢٠٠٠ نموذجًا ألهم الفلسطينيين، فإن حرب تموز ٢٠٠٦ كرّست معادلة الردع التي أمّنت مظلة نفسية لغزّة. ومع اندلاع «طوفان الأقصى» في أكتوبر ٢٠٢٣، تجلت وحدة الساحات التي بشّر بها نصرالله: فتح حزب الله جبهة الإسناد في الجنوب، مؤكدًا أن مصير لبنان وفلسطين واحد. هذه ليست رومانسية خطابية، بل حقيقة إستراتيجية. لقد استُشهد نصرالله وهو يقود هذه الوحدة عمليًا. لذلك لم يكن غريبًا أن يشيّعه الفلسطينيون كأحد قادتهم، وأن يرفعوا صورته في غزّة والضفّة كما لو كان قائدًا محليًا.

## الرثاء المستحيل: أزمة الكلمة أمام الأسطورة

الرثاء فعل لغوي؛ لكنّه يتعثر أمام ظواهر استثنائية. لم يعرف الكُتّاب كيف يكتبون عن نصرالله. لماذا؟ لأنه جعل الكلمات تأتيه لا العكس. كانت الفكرة في خطابه تنساب بسلاسة، كأنها تعبر كلّ الطرق في وقت واحد. لم يحتج إلى شعارات جوفاء، ولا إلى لغة معقّدة. جمع بين وضوح التعبير وعمق الفكرة، فصار مرجعًا حتّى لخصومه الذين لم يجدوا في خطابه ثغرة من حيث الاتساق والمنطق.

هنا تبرز المفارقة: حين يرحل مثل هذا القائد، يواجه الكُتّاب عجزًا مضاعفًا. هل يرثونه كقائد عسكري أم كزعيم روحي؟ أم كرجل مثّل استثناءً تاريخيًا في الصدق والوضوح؟ لذلك كان الرثاء دائمًا ناقصًا، محكومًا بالفشل أمام حجم الظاهرة.

## فانون.. وتثقيف المسحوقين

فرانز فانون تحدّث عن مهمّة القائد الثوري في «تثقيف المسحوقين»، أي تمكينهم من إدراك ذواتهم وقدرتهم على الفعل. نصرالله جسّد هذه المهمّة. لم يتعامل مع جمهوره ككتلة عاطفية بحاجة إلى الشعارات، بل كمجتمع قادر على استيعاب أعقد المعادلات الإستراتيجية إذا صيغت بصدق وبساطة.

بخطابه، ارتقى بالمستوى الشعبي إلى مستوى الوعي السياسي، من دون أن يفقد حرارة اللغة القريبة من الناس. وهنا يكمن سرّ فرادته: جمع بين التنظير العميق واللغة المفهومة.

## وصية الدم: فلسطين أوّلًا وأخيرًا

منذ تأسيس حزب الله، ومنذ استشهاد عباس الموسوي عام ١٩٩٢، كان الالتزام بفلسطين جزءًا من العقيدة؛ لكن مع نصرالله، تحولت هذه العقيدة إلى ممارسة متصاعدة: دعم الفصائل الفلسطينية، تعزيز مفهوم وحدة الساحات، الانخراط المباشر في معركة «طوفان الأقصى». استشهاده في سبتمبر ٢٠٢٤ لم يُقرأ كاغتيال لقائد لبناني فحسب، بل كاغتيال لـ«حارس فلسطين». العبارة التي ردّدها أنصاره من لبنان وفلسطين أيضًا - «سيِّد الشُّهداء وحارس فلسطين» - لم تكن مجرد مجاز، بل توصيفًا دقيقًا لدوره: سيِّد الشُّهداء لأنه وهب حياته كلها للمقاومة، وحارس فلسطين لأنه جعل من لبنان خط دفاعها الأوّل.

## الطاقة التي لا تفنى

رحيل نصرالله لم يكن نهاية، بل بداية شكل آخر من الحضور. كما في قوانين الفيزياء، حيث تتحول الطاقة من شكل إلى آخر دون أن تزول، تحولت شخصيته إلى طاقة كامنة تدفع أجيالًا جديدة من المقاومين. لقد ترك وصية واضحة: أنّ فلسطين هي البوصلة، وأنّ المقاومة وحدها طريق الحرّية.

أي كلمات تفي بدمك يا نصرالله؟ ربّما لا توجد؛ لكن ما يمكن قوله بثقة هو إنّ دمك صار جزءًا من ذاكرة الأمّة، وإنّ حضورك سيظلّ يتجدد كلما رفعت غزّة رايتها، أو وقف مقاتل في جنوب لبنان على تخوم فلسطين. لقد رحلت بالجسد؛ لكنك بقيت كحقيقة كبرى: سيِّد الشُّهداء، وحارس فلسطين.

في النهاية، ما معنى عبارة «سيِّد الشُّهداء وحارس فلسطين»؟ إنها ليست مجرد شعار عاطفي. «سيِّد الشُّهداء» لأنّه جسّد موقعًا استثنائيًا في تاريخ المقاومة، ولأنّه ختم مسيرته بالشهادة التي رفعت رمزيّته إلى مرتبة أسطورية. و«حارس فلسطين» لأنّه جعل من لبنان درعها الإستراتيجي، وحوّلها من قضية منسية إلى بوصلة سياسية وأخلاقية للعالم العربي والإسلامي. استحق بذلك وصف الفلسطينيين له بـ«شهيد غزّة». لقد عاش مدافعًا عنها، واستشهد وهو يقود جبهة إسنادها.

**موقع العهد الاخباري**

# ما الذي جعل «شعب فلسطين» رمزاً للاستقامة؟

**ينشر موقع KHAMENEI.IR مقالاً للخبير في الشأن الفلسطيني محسن فايضي حول سبب صمود أهالي غزّة مقابل وحشيّة الصهاينة ومقاومتهم الجماعيّة والرواية الحقيقيّة بشأن عمليّة «طوفان الأقصى»؛ إضافة إلى دور الإيمان والجهاد والقرآن في مشهد الصّمود الذي يعرضه الفلسطينيّون للعالم ومدى تأثير هذا الصّمود في جعل شعب فلسطين رمزاً للاستقامة.**

بعد بلوغ عدد الشهداء والمفقودين في الحرب على غزّة إلى عشرات الآلاف ضمن نطاق غزّة التي تبلغ ٣٦٠ كيلومتراً، إلى جانب ارتكاب الجرائم وفرض الحصار، جعل صمود الشعب الفلسطيني جميع من في العالم يصابون بالحيرة والذّهول. كأنّ الجميع كانوا يبحثون عن الإجابة عن سؤال واحد: أيّ منطق وهدف وسبب يجعل ٢/٣ مليون يصمدون ويدافعون عن عمليّة «طوفان الأقصى» ويواصلون إعرابهم عن استعدادهم لتقديم المزيد من التضحيات؟

أثبتت التجارب التاريخيّة الكثيرة خلال القرن الأخير أنّ بعض المجتمعات تراجعت أمام الجرائم والإرهاب رغم اعتقادها بكونها محقّة، أو أنّها جزءٌ صغيرٌ من ذاك المجتمع أبدى استعداداً للاستقامة وخوض المواجهة؛ لكن ما يحدث في قطاع غزّة يُجسّد صمود شعب بأكمله، ومن أجل الردّ على هذا السؤال لابدّ من عرض بضعة أمور.

## «روايتنا عن طوفان الأقصى»*

إنّ أوّل سبب لصمود شعب فلسطين هو التجربة التاريخيّة. لقد اكتسب الشعب الفلسطيني وقطاع غزّة، على وجه الخصوص، تجربةً تاريخيّة خلال الأعوام السبعين وحقّق نضجاً تاريخياً. فتجارب الحكم المتنوّعة بدءاً من بريطانيا، والكيان الصهيوني، والسلطة الوطنيّة الفلسطينيّة و«حماس» إلى جانب المعاهدات والحروب المتنوّعة جعلتهم يكوّنون خلفيّة تاريخيّة وفهماً للوقائع والأحداث. هي تجربة تحوّلت إلى جزء من إيمان الشعب الفلسطينيّ أيضاً.

كانت «طوفان الأقصى» ردّ فعل على أكثر من مئة عام من الاستعمار البريطاني والصهيوني لشعب فلسطين العريق الذي يحمل هويّة عربيّة وإسلاميّة. لقد بلغ شعب فلسطين في خضمّ تجربته التاريخيّة هذه النقطة، وهي أنّ الحؤول دون فقدانه أرضه وهويّته وقيمه لا يتحقّق إلا عبر مسارٍ واحد هو إطلاق الطوفان.

لم تبدأ معركة الشعب الفلسطيني ضدّ الاحتلال والاستعمار في السابع من أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٢٣، بل إنّ الاحتلال بدأ قبل ذلك بمئة وخمسة أعوام، فهم قضوا ٣٠ عاماً من الاستعمار البريطاني و٧٥ من احتلال الكيان الصهيوني. كانت «طوفان الأقصى» خطوة ضروريّة وردّاً طبيعيّاً في مقابل مشاريع الكيان الصهيوني الرامية إلى إنهاء قضيّة فلسطين، كما كانت خطوة طبيعيّة ضمن إطار التحرّر من الاحتلال وتأسيس دولة فلسطين المستقلّة وعاصمتها القدس الشريف.

قال الإمام الخامنئي في وقت سابق عن هذا: «كان سلوك هذا الكيان الظالم على هذا النحو: لم يرحم النساء والرجال، ولم يرحم الأطفال والشيوخ الفلسطينيين، وهتك حرمة المسجد الأقصى وأفلت المستوطنين مثل الكلاب المسعورة ليتعرضوا للشعب الفلسطيني، وسحق المصلين ركلاً تحت الأرجل. حسناً ماذا يفعل أيّ شعب مقابل هذا الظلم والإجرام كله؟ ما رد الفعل الذي يُظهره شعبٌ غيور وعريق أمام هذا الظلم كله؟ من الواضح طبعاً أنه سيفجّر الطوفان».

## الإيمان والجهاد

العنصر الآخر الذي يساعد على فهم صمود الشعب الفلسطيني، وهو أهمّ العناصر أيضاً ويمكن لمسه لدى الشعب المحاصر في قطاع غزّة، عنصر القوة والاعتقاد، أي الإيمان المنبثق على مدى قرون طويلة عاشها هذا الشعب من المعارف الإسلاميّة، والقرآن، وسيادة الفكر الإسلامي هذه المنطقة خلال العقدين الأخيرين، وحضور كلمة «الجهاد» المفتاحيّة في المجتمع الغزيّ.

وقفت فلسطين بصلابة وإرادة، لأنّ أمثال الشيخ أحمد ياسين شرحوا على مدى عقود – إلى جانب التجربة التاريخية التي عاشها المجتمع وجرى التطرّق إليها – ماهيّة الجهاد والاستقامة الإسلاميّة، وعرضوا أيضاً النتيجة المثمرة لهذا المسار واستقاموا عليه وثبتوا وتمسّكوا به.

منح نجاح الحركات الجهاديّة والإسلاميّة من قبيل «الجهاد الإسلامي في فلسطين» و«حركة المقاومة الإسلاميّة» الفلسطينيّة (حماس) هذه الفرصة للأمّة الفلسطينيّة وسكان قطاع غزّة، أي أن يطبّقوا معتقداتهم الإسلاميّة ويتذوّقوا الطعم العذب والحلو للعزّة والمقاومة في وجه الفكر الخاضع والمستسلم الذي ينادي بالتراجع أملاً في التقليل من الجرائم، والحصول على الحقوق.

هذه العزّة أدّت إلى صحوة المجتمعات العالميّة وتبدّل أجواء الرأي العام العالمي، فلاستقامة الشعب الفلسطيني وإيمانه قيمة تتخطّى أرض فلسطين التاريخيّة.

يؤكّد قائد الثورة الإسلاميّة تسليط الضوء على قوّة الإيمان وكذلك الصبر والصمود لدى أهالي غزّة، فيقول: «ليس الميدان ميدان غزّة و«إسرائيل»؛ إنّه ميدان الحقّ والباطل. الميدان ميدانُ الاستكبار والإيمان: في جانبٍ قوّة الإيمان وفي الطرف الآخر قوّة الاستكبار. طبعاً تبرز قوّة الاستكبار بالضغوط العسكريّة والقصف وارتكاب الجرائم والفجائع، [لكن] قوّة الإيمان ستتفوّق على هذه كلّها، بتوفيق من الله... استطاع أهالي غزّة بصبرهم تحريك الضمير البشريّ... ففي هذه الدول الغربيّة... يتوافد الناس بحشود غفيرة إلى الشوارع ضدّ «إسرائيل» ويُطلقون في عدد من الحالات الشعارات ضدّ أمريكا. لقد أريق ماء وجه هؤلاء».

## «القرآن» من تجلّيات الإيمان

من النماذج لتبلور الإيمان لدى أهالي قطاع غزّة استخدامهم آيات القرآن في خطابات المقاومة وبياناتها، ونشر الآلاف من المقاطع المصوّرة والمشاهد لتكرار الشعب الفلسطيني آيات القرآن والاستعانة به عند تعرّضهم للقصف والجرائم... هذا ما شدّ انتباه سكّان العالم أجمع إلى القرآن وآياته، والقدرة التي يشتمل عليها هذا الكتاب الإلهي.

يطرح قائد الثورة الإسلاميّة هذه القضيّة خلال لقاء مع أئمّة الجمعة في إيران فيقول: «هذه هي خصوصيّة الصّبر والتوكّل. لقد روّج أهالي غزّة الإسلام بصمودهم.

في أرجاء العالم وأكنافه، يسعى الباحثون للعثور على هذا العامل الذي يجعل المناضل الفلسطينيّ يصمد كذلك في الميدان: ما هذا الإسلام؟ لقد عرّفوا الإسلام وقدّموه، وجعلوا القرآن محبوباً في أنظار كثيرين» (٢٠٢٤/١/١٦).

## الخلاصة:

علّمت مقاومة فلسطين وشعبها العالمين الإسلامي والعربي أنّ السبيل الوحيد الواضح والمحفوف بالأمل والناجح أمام الشعوب التي تواجه العالم المتغطرس هو الإيمان والاستقامة والاعتقاد بالقرآن المجيد. لقد استفادت الأمّة الفلسطينيّة من تجربتها التاريخيّة وهويّتها وإيمانها الاجتماعي بالإسلام والمقاومة، فجعلت العدوّ يعاني من الحيرة والضياع حتى الآن.

«هؤلاء النّاس صبروا للحق والإنصاف، وعُرض بعض المشاهد من ذلك عبر وسائل الإعلام في العالم وبلادنا: يُستشهد ابنه فيَحمدُ الله، ويُستشهد ابنه فيقول: فداء لفلسطين، والفتى الجريح يشكر الله ويتلو آيات من القرآن. صبر هؤلاء النّاس مهمٌّ للغاية. أراد العدو أن يُجبر هؤلاء على الاستسلام... لكنهم لم يستسلموا. هذه نقطة مهمة للغاية».

*هذه روايتنا: «لماذا طوفان الأقصى» عنوان مدوّنة نشرها المكتب الإعلامي لـ«حركة المقاومة الإسلاميّة في فلسطين/حماس» في ٢٠٢٤/١/٢١.*